المعنى اللغوى فى أساس البلاغة

نظرة فى دلالة بعض الألفاظ الإسلامية

إعداد

الدكتور/ السيد عبد الحميد القط

تقدير

يعالج هذا البحث قضية الحقيقة والمجاز من خلال استعراض وتحليل بعض الألفاظ التى وردت فى معجم أساس البلاغة للزمخشرى، وهو معجم متميز انفرد - دون سائر المعاجم- بمعالجته لهذه القضية.

ولما كان الخلط بين الحقيقة والمجاز، والاضطراب فى تحديد كل منهما هو أبرز المآخذ على هذا المعجم فقد حرصت على معالجة هذه المسألة من خلال بعض الكلمات التى ترددت أقوال العلماء فيها بين الحقيقة والمجاز.

وقد تناولت هذه الألفاظ بالدراسة والتحليل من خلال كتب اللغة والأدب، بالإضافة إلى المعاجم حتى يكون الحكم على تغير المعنى أو تطوره فيها أقرب إلى الصواب. وقد تبين من خلال استعراض هذه الكلمات ودراستها، أن القول بالخلط والاضطراب فى تحديد كل من الحقيقة والمجاز عند الزمخشرى قول متسرع يفتقر إلى البرهان، وأن النظر والتدبر يشير إلى أنه كان للزمخشرى رؤية خاصة فى تحديد كل من الحقيقة والمجاز، تتفق مع بيئته وتتناسب مع عصره، ولا ريب أن اللغة بنت المجتمع تعبر عنه وتحاكيه فى شتى جوانبه، وأقدر الناس على التمييز والحكم على ظواهر اللغة هم علماء اللغة والباحثون فيها فى كل عصر.

وبالإضافة إلى ما سبق، فقد حاولت فى هذه الدراسة أن أبرز بعض جوانب التميز فى هذا المعجم، ومنهاسبقه بالاشارة إلى أهمية

السياق والتركيب في الوصول إلى المعنى وتحديده، وهو أمر أولاه المحدثون عناية فائقه، بل عده بعضهم الطريق الأمثل لتحديد معنى الألفاظ، وهناك جوانب أخرى من التمييز فى هذا المعجم أشرت إليها فى مواضعها.

والله أسأل أن يعلمنا ما ينفعنا وأن ينفعنا بما علمنا إنه نعم المجيب.

الباحث

دكتور/ السيد عبد الحميد القط

من خصائص المعجم:

شهد القرن الخامس الهجرى نموذجا فريدا فى فن تأليف المعاجم العربية، وكان هذا النموذج على يد أبى القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد الأديب النحوى واللغوى والفقيه الشهير بالزمخشرى الخوارزمى، فقد ألف الزمخشرى معجمه (أساس البلاغة) على نمط لم يسبق إليه، وبأسلوب غير معهود فى مجال التأليف المعجمى حتى ذلك الوقت(١).

ولم يكن التفرد والابتكار فى أساس البلاغه مقصورا على المنهج السهل الميسر الذى يهجم فيه الطالب على مطلوبه بأقل جهد وأيسر طريق، بل تعداه إلى أمور أخرى مثل تسمية المعجم نفسه، بالإضافة إلى الميدان الذى تناوله والهدف الذى رمى إليه، بل والمصادر التى اعتمد عليها.

ومن هنا فلا غرابة أن ينال هذا المعجم فى عصره- وفى العصور التى تلته وحتى يومنا هذا- من الشهرة والذيوع- الشئ الكثير.

فقد عهد الناس في مجال التأليف المعجمى أن يسمعوا بأسماء المعاجم التى ترتبط بموضوع اللغة أو تشير إليه إشارة واضحة، مثل

---

(١) ولد بزمخشر سنة ٤١٧هـ وتوفى بجرجانية خوارزم ٥٣٨هـ ينظر فى ترجمته هدية العارفين لاسماعيل البغدادى ٦/٤٠٢، ٤٠٣ ط. دار الفكر ١٩٨٢م وينظر بغية الوعاة للسيوطى ٢/٢٧٩ ط بيروت وينظر وفيات الأعيان لابن خلكان ٥/١٦٨ ط. بيروت، والاعلام للزركلى ٧/١٧٨ ط. بيروت ١٩٨٠م.

العين للخليل، وتهذيب اللغة للأزهرى، والبارع فى اللغة لأبى على القالى، والصحاح للجوهرى، إلى آخر تلك الأسماء التى تكشف بوضوح عن موضوعها.

لكن الزمخشرى خرج على الناس بهذا العنوان (أساس البلاغة) وهو عنوان لاعهد لأحد به فى مجال التأليف المعجمى، إذ يشير إلى إتجاه جديد فى هذا الفن، فاهتمام المعاجم ينصب على جمع المفردات وإثبات معانيها، غير أن الزمخشرى يرى أن الارتباط بين هذا الجمع وبين البلاغة أمر لا يمكن إهماله لأنه ملحظ جوهرى فى استنباط المعنى والوقوف عليه.

ومن هنا جاء هدف المعجم مخالفا لأهداف المعاجم السابقة عليه، ولكنه- وفى نفس الوقت جاء منسجما مع اسم المعجم وميدانه، فالهدف هنا ليس مجرد جمع واستقصاء لألفاظ اللغة، أو حتى جمع للصحيح منها، لكنه طريق للتعرف على مواطن البلاغة فى المشهور من كلام العرب، ثم الانطلاق من ذلك إلى التعرف على مواطنها وأسرارها فى كلام المولى جل وعز.

ويتضح كل هذا من كلام الزمخشرى نفسه فى مقدمته[1] إذ يقول فيها «هذا، ولما أنزل الله تعالى كتابه مختصا من بين الكتب السماوية بصفة البلاغة التى تقطعت عليها أعناق العتاق السبق، وونت عنها خطا الجياد القرح، كان الموفق من العلماء الإعلام، أنصار

---

(١) المقدمه ط. دار المعرفة بيروت تحقيق الاستاد عبد الرحيم محمود. ١٩٨٢م. بيروت.

ملة الاسلام، الذابين عن بيضة الحنيفية البيضاء، المبرهنين على ما كان للعرب العرباء، حتى تحدوا به من الإعراض عن المعارضة بأسلات ألسنتهم، والفزع إلى المقارعة بأسنة أسلهم، من كانت مطامح نظره، ومطارح فكره، الجهات التى توصل إلى تبين مراسم البلغاء، والعثور على مناظم الفصحاء، والمخايرة بين متداولات ألفاظهم، ومتعاورات أقوالهم.. ».

غير أن هذا المعجم لا يختلف عما سبقه فى الاسم والهدف فقط، بل يختلف أيضا فى ميدان بحثه، فالمعروف أن ميدان البحث ومجاله ومادته فى المعاجم اللغوية هو الألفاظ المفردة أو الكلمات من دون نظر إلى مجال الاستعمال(١)، لكن أساس البلاغة معجم بلاغي، أى يجمع بين اللغة والبلاغة، فهو يجمع الكلمات نعم، لكنه لا يقف إلا عند الكلمة حين تكون فى سياقها أو فى عبارتها المركبة، وليست كل عبارة صالحة لأن تكون محلا للتناول والدراسة، وإنما العبارة التى لها مركز ووزن في عالم اللغة والأدب، فهو يورد الألفاظ حسب منهجه الجديد فى الترتيب والتبويب، لكنه يوردها فى سياقاتها

---

(١) أشار الاستاذ الدكتور عبد الله ربيع إلي أن الزمخشرى أراد بكتابه هذا أن يربط بين علم اللغة وبين علوم البلاغة والأدب حيث لحظ انفصالا واضحا بين المؤلفات اللغوية البحته والتى أقتصرت على جمع مفردات اللغة بعيدة عن مجالات الاستعمال وبين المؤلفات الأدبية والبلاغية التى تتعامل مع التراكيب وتعيش فى ضوء الأساليب» ينظر كتاب المعجم العربى بين النظرية والتطبيق ١٤٧ الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ.

العربية الفريدة والمتميزة، ولا يأتى بها مفردة عارية من التركيب غالبا [١]، بل يسوقها متناسقه لا مرسلة بدداً، ومتناظمة لا طرائق قدداً» [٢] وأحسب أن هذه الخصيصة السابقة هى أبرز خصائص ذلك المعجم، وأنها من مظاهر الجدة والابتكار فيه، بل أزعم أن الزمخشرى - رحمه الله- قد قصد إليها قصدا، وجعلها أمام ناظريه فى كل مراحل تأليف الكتاب، ولعل مما يؤيد ذلك تأكيده فى المقدمة على هذا الأمر بقوله «ومن خصائص هذا الكتاب تخير ما وقع فى عبارات المبدعين، وانطوى تحت استعمالات المغلقين، أو ما جاز وقوعه فيها وانطواؤه تحتها، من التراكيب التى تملح وتحسن، ولا تنقبض عنها الألسن، لجريها رسلات على الاسلات، ومرورها عذبا على العذبات» [٣]. فالنص فى المقدمة على تلك الخصيصه وتقديمها على غيرها من خصائص الكتاب، يشير إلى أن اهتمامه بها كان أشد، واتجاهه إليها كان عن عمد.

أقول هذا لأن بعض العلماء قد ذكر أن أهم ما يميز (أساس البلاغة) تفريقه بين الحقيقة والمجاز [٤]، ولعل الذى دعاهم إلى ذلك هو أن الزمخشرى كان أول من التقت إلى هذا الملحظ من بين أصحاب المعاجم.

---

(١) ينظر المعجم العربى د/حسين نصار ٢/٦٩١ ط. مكتبة مصر.

(٢) المقدمة (ل) ط. دار المعرفة. ١٩٨٢ بيروت.

(٣) المقدمة (ك) ط. دار المعرفة بيروت ١٩٨٢.

(٤) منهم ابن حجر العسقلانى في غراس الاساس وينظر مقدمة الأساس للأستاذ أمين الخولى (هـ)

ومع أن هذا أمر مهم يحسب للزمخشرى فى مميزات أساسه، إلا أنه ليس بالأمر الأهم الذى يميز به هذا المعجم العظيم.

وربما نستأنس لذلك بمايلي :

أولاً: كلام الزمخشرى نفسه فقد ذكر خصائص المعجم ثم قال فى نهايتها «ومنها (أى من خصائص المعجم) تأسيس قوانين فصل الخطاب والكلام الفصيح، بإفراد المجاز عن الحقيقة والكنايه عن التصريح»[١] من الواضح أن تميز الحقيقة عن المجاز ليس أهم خصيصة فى المعجم، فقد قدم عليها غيرها من الخصائص، وأطنب فى الحديث عنها، فى حين جعل تميز الحقيقة من المجاز فى آخر تلك الخصائص، ثم أشار إليهافى سطر واحد أو فى عبارة موجزة[٢].

ثانياً: كتب الاستاذ الكبير أمين الخولى تصديراً للأساس بعنوان (الأساس بين المعاجم) أثنى فيه على الأساس فى جدته ومسايرته لتطور اللغة ثم قال «وقد يرى من يرى أن ميزة الأساس التى تميزه عن سائر المعاجم العربية هى : تفريقه بين الحقيقة والمجاز فـ(أبو القاسم) نفسه يعد من خصائص كتابه تأسيس قوانين فصل الخطاب، والكلام الفصيح بافراد المجاز عن الحقيقه... ويقول معه

---

(١) المقدمة ص (ل).

(٢) لا ريب أن تميز المجاز من الحقيقة لا يتأتى إلا من خلال السياق وميادين التعبير لكن التزام الزمخشرى بايراد ألفاظه من خلال السياقات من جهه. واهتمام العلماء بدراسة السياق فى عصرنا من جهة أخرى تجعل من اللازم أن يشار إلى فكرة السياق التى سبق بها الزمخشرى على أنها من أبرز مميزات معجمه.

ذلك غير واحد من العلماء بعده،[١] (فابن حجر العسقلانى) المتوفى سنة ٨٥٢هـ الذى جمع المجازات الواردة فى أساس البلاغة فى كتاب خاص بها، سماه (غراس الأساس) يقول فى مقدمته : (فرأيت أن المهم منه ما تميز عن الكتب المصنفة في اللغة من تبيين الحقيقة من المجاز، والتمكن من اجتناب الاسهاب وارتكاب الايجاز) لكن كاتب هذه الكلمات[٢] لا يساير القوم كثيرا، فى التسليم بهذه الخصيصة والاهتمام بتلك الميزه لأسباب» [٣] ثم ذكر الأستاذ أمين الخولى من هذه الأسباب أن المعنى الاصطلاحى المستقر للمجاز اللغوى لم يكن قد بلغ مداه عندما كتب الزمخشرى معجمه، ثم ذكر مخالفة ابن حجر فى كتابه (غراس الأساس) للزمخشرى فى بعض مسائل الحقيقة والمجاز، كدليل على أن أقسام المجاز الاصطلاحية لم تكن قد استقرت بعد[٤].

ولعلنا نعرف أن أهم المآخذ على معجم (أساس البلاغة) هو الاضطراب فى تحديد المجاز الأمر الذى استتبعه اضطراب فى تقسيم الحقيقة والمجاز «وقد وجدنا كثيراً من العبارات الحقيقية فى الاقسام المجازيه، والأمثال بعضها يوضع فى الحقيقى وبعضها الآخر فى

---

(١) أى بعد الزمخشرى.

(٢) الاستاذ أمين الخولى يقصد نفسه.

(٣) تصدير الاساس للأستاذ أمين الخولى (و) ط. دار معرفة بيروت.

(٤) الزمخشرى ت ٥٣٨هـ ويشار هنا إلى أن صاحب الفراس لم يوافق أو لم يسلم بكل ما ذكره الزمخشرى عن الحقيقة والمجاز.

المجازى دون فرق جوهري بين النوعين. وهذا الأمر أهم ما نأخذه على الأساس، لأنه الدعامة التى أقام عليها المؤلف كتابه»[١].

الزمخشرى والسياق:

غير أن الأمر الذى نريد أن نؤكد عليه، هو أن الزمخشرى باعتماده فى معجمه على العبارة المؤلفة والتركيب البليغ- كان أسبق من غيره فى الاشارة إلى أهمية السياق ودوره فى تبيان المعنى أو المعانى المتعددة للفظة، والحكم عليها من خلاله، حيث يذكر العلماء أن (أساس البلاغة) «ليس معجما للألفاظ المفردة، بل للعبارات المؤلفة مرتبة بحسب اللفظ البارز فيها لا الأول»[٢] أو هو معجم خاص يتناول التعبيرات العربية المأثورة كالأشعار والأقوال والأمثال والأسجاع، وأقوال الفصحاء من الإعراب، وقبل كل ذلك الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وهذا- ولا ريب - مسلك جديد قصد إليه الزمخشرى، وإليه يرجع الفضل فى توجيه التأليف فى المعاجم إلى التراكيب، بدلا من الألفاظ المفردة.

والمعروف أن أهمية السياق قد برزت فى عصرنا الحديث حتى وجدت مدرسة تسمى (المدرسة السياقية)[٣] جعلت السياق أحد أهم

---

(١) ينظر المعجم العربى د. حسين نصار ٧٠٩/٢ ط. مكتبة مصر ١٩٦٨- هذا رأى الدكتور حسين نصار وسيأتى الرد عليه.

(٢) السابق ٧٠٥/٢.

(٣) ينظر تعريف السياق ومفهومه وأنواعه فى كتاب دلالة السياق د/ عبد الفتاح البركاوى جـ٢٥، فقد يراد به تتابع الكلمات فى الجمل أو فى النص كما يراد به أحيانا المقام الذى يصاحب الكلام، كما قد يراد به القصه أو الظرف الخارجى الذى يمكن فهم الكلام على ضوئه. السابق ٢٦.

مناهج دراسة المعنى، ويرى أصحاب هذه المدرسة أن معنى الكلمة هو استعمالها فى اللغة، فالمعنى لا ينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية، أى وضعها فى سياقات مختلفة، ويقولون إن « معظم الوحدات الدلالية تقع مجاورة لوحدات أخرى، وإن معانى هذه الوحدات لا يمكن وصفها أو تحديدها إلا بملاحظة الوحدات الأخرى التى تقع مجاورة لها »(١).

ويؤكد العالم الألمانى (أولمان) وجهة النظر هذه فيقول: «المعجمى يجب أولا أن يلاحظ كل كلمة فى سياقها (كما ترد فى الحديث أو النص) بمعنى أننا يجب أن ندرسها فى واقع عملى (أى الكلام) ثم نستخلص من هذه الأحداث الواقعية العامل المشترك العام، ونسجله على أنه المعنى أو المعانى للكلمة، وبعد أن يجمع المعجمى عددا من السياقات المختلفة التى ترد فيها كلمة معينة، وحينما يتوقف أى جمع آخر للسياقات عن إعطاء أى معلومات جديدة يأتى الجانب العملى إلى نهايته، ويصبح المجال مفتوحا أمام المنهج التحليلى »(٢).

ونرى قريبا من هذا الاتجاه عند (فندريس) إذ يقول فى هذا المعنى «عندما نسمع جملة أو مقرؤها نرى الكلمات التى تشتمل عليها يفسر بعضها بعضا، فإذا كان فيها واحدة غير مألوفة لنا، حاولنا بطبيعة الحال تفسيرها معتمدين على سياق النص... هذه

---

(١) علم الدلالة د/أحمد مختار عمر ٦٨، ٦٩. ط. دار العروبة.

(٢) السابق ٧٥.

الفكره التى نحصل عليها بالتخمين قد تكون زائفة، ولكنها تصحح فى الغالب، لأن الكلمة نفسها تقابلنا بعد ذلك فى جمل أخرى مع كلمات أخرى تحدد لنا معناها، وعلى هذا النحو يثبت فى الذهن معنى كل كلمة[١]». وكلام (فندريس كلام علمى يؤيد الواقع العملى، غير أن بعض العلماء قد بالغ فى فكرة السياق حتى عده السبيل الأمثل والوحيد لكشف المعنى، ومنهم المفكر والفيلسوف المعاصر (برتداندرسل) إذ يقول «الكلمة تحمل معنى غامضا لدرجة ما، لكن المعنى ينكشف فقط عن طريق ملاحظة استعماله، فالاستعمال يأتى أولا ثم يتقطر منه المعنى»[٢].

وأحسب أن فى ذلك مبالغة لا مسوغ لها، فالسياق له أهميته فى تحديد المعنى، وإكساب الكلمات بعض المعانى الجديدة، لكن ذلك يتم- غالبا- على سبيل التوسع فى المفهوم الأصلى، ثم إن هناك حقيقة واضحة لا خلاف حولها، وهى أنها مهما تنوعت الاستعمالات التى تصلح لها الكلمة وتعددت، فإن أحد هذه الاستعمالات يظل بارزاً ويطغى على غيره المعانى، ويتميز هذا المعنى البارز بأنه يحتمل الصدارة بين معانى الكلمة، وتدور حوله بقية المعانى، بل هو الذى يعين معنى الكلمة الأساس على النحو الذي تسجل عليه فى القاموس، ويمكن أن نعثر على أمثلة توضح هذا المسلك إذا رجعنا إلى بعض المعاجم العربية[٣].

---

(١) اللغة لنقدريس ٢٥٣، ٢٥٤ ط. ١٩٥٠م.

(٢) علم الدلالة ٧٢ د/أحمد مختار عمر ط. دار العروبة الكويت.

(٣) مثل معجم مقاييس اللغة لابن فارس ينظر المقاييس ٥/٣٩، ٤/ ٤٣٥ تحقيق هارون ط. دار الفكر.

رؤية الزمخشرى فى تحديد المعنى الأصلى أو الحقيقى :

غير أن تعدد معنى الكلمة بتعدد السياق الذى ترد فيه يقتضى تحديد المعنى الحقيقى[١] من بين تلك المعانى، وهذه قضية مهمة فى علم الدلالة بل هى قضيته الأساسية، وإلى ذلك يشير (ماريوباى) بقوله «وكما يتضح من معاجمنا الضخمة، فإن أهم المشاكل المرتبطة بالمفردات، هى ما يتصل بالدلالة المفردة لكل كلمة، Semanties وتاريخ الكلمات وتطورها Etymology وكلا الموضوعين وخصوصا ثانيهما يمثل مكانة هامة[٢] لدى عالم اللغة»[٣].

ومع أن الزمخشرى كان يورد الكلمة فى سياقات أو تراكيب مختلفة وفصيحة من أجل إبراز معناها الأصلى، إلا أنه يمكن القول بأنه كانت للزمخشرى - رحمه الله- رؤية جديدة فى الوقوف على هذا المعنى الأصلى أو الحقيقى، وبالتالى يمكن القول بأنه لم يكن فى الأمر اضطراب فى تحديد الحقيقة والمجاز كما قال بذلك

---

(١) الحقيقة اللغوية هى الكلمة المستعملة فيما وضعت له فى اصطلاح به التخاطب، والمجاز اللغوى هو الكلمة المستعملة فى غير ما وضعت له في اصطلاح به التخاطب على وجه يصح مع قرينه. ينظر تفصيل ذلك فى مفتاح العلوم للسكاكى ٣٥٨-٣٦٣ ط. دار الكتب العلمية ١٩٨٧ والايضاح للقزوينى ١٥٠ط. مكتبة صبيح ١٩٦٤ وبغية الايضاح عبد المتعال الصعيدى ٣/٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩. ط. مكتبة الآداب.

(٢) هكذا فى الأصل وليس فى اللغة (هامة) بمعنى مهم.

(٣) أسس علم اللغة ٥٥، ماريوباى ط. عالم الكتب.

د/حسين نصار فى أساس الزمخشرى، وسوف نحاول استعراض هذه الرؤية من خلال بعض المواد فى هذا المعجم، وسنتناولها بالتحليل والدراسة.

تحليل بعض مواد الأساس :

مادة (ر. ك. ع)[١]:

يقول الزمخشرى فى عرضه لهذه المادة «شيخ راكع: منحن من الكبر، وشيوخ ركع، ومنه ركوع الصلاة، وصلى ركعة: قومة سميت بالمرة من الركوع فيها..» (ثم يقول) ومن المجاز : لغبت الابل حتى ركعت، وهن رواكع إذا طأطأت رءوسها وكبت على وجوهها».

ومن الواضح أن الزمخشرى جعل الركوع فى الصلاة من الحقيقة، فى حين جعل ركوع الابل إذا طأطأت من باب المجاز.

والعهد فى المعنى الحقيقى أو الأصلى أن يكون أسبق فى الظهور، ومن علامات هذا السبق أن يكون دالا على معنى عام، أو دالا على معنى محس، فالعقل يتعلق أولا بالمعانى المادية المحسة، ولا يصل إلى المعانى المجردة إلا بعد اكتماله ونضوجه، ومن هنا يشير الباحثون فى نشأة الدلالة إلى «أنها بدأت بالمحسات، ثم تطورت إلى الدلالات المجردة بتطور العقل الانسانى ورقيه، فكلما ارتقى التفكير العقلى جنح إلى استخراج الدلالات المجردة، وتوليدها والاعتماد عليها فى الاستعمال، وهذا يعد مرحلة تاريخية متميزة لتطور الدلالة عند الأمم»[٢].

---

(١) الأساس (ركع).

(٢) دلالة الألفاظ د/أنيس ١٩٢ وفقه اللغة للأستاذ المبارك ٢٢١ط. دارالفكر بيروت.

وتمتلئ كتب اللغة بأمثلة تؤيد ذلك منها« أن المعاجم تنص على أن الرطانه فى الإبل مجتمعة، ومن الطبيعى أن يصدر عنها أصوات مبهمة، وقد انتقلت الكلمة من هذا المعنى لتعبر عن كلام مبهم بلغة أجنبية لا يستبين منه السامع شيئا، فتصبح ذات دلالة مجردة جديدة، هى حسب ما جاء فى القاموس. الكلام بالأعجمية، ثم مر عهد كانت تستعمل فيه هذه اللفظة لهاتين الدلالتين، ثم كثر شيوع الدلالة المجردة، ولم نعد نرى الرطانة بالمعنى المحس إلا فى ثنايا المعاجم القديمة» (١).

وعلى ذلك يمكن القول بأن العرب قد عرفت ركوع الابل عند شرابها، أو عند ركوبها قبل أن يعرفوا الركوع فى الصلاة، فالأول معنى عام كما أنه محس، ويحاكى البيئة العربية البدوية والحياة البسيطة التى عاشها العرب فى الجاهلية، أما الثانى فهو معنى خاص له شروطه وهيئته، ولم يعرف للكلمة إلا بعد بزوغ فجر الاسلام ومعرفة الصلاة التى أصبح الركوع ركنا فيها، ويتضح ذلك من قول القرطبى فى تعريف الركوع «والركوع الشرعى أن يحنى الرجل صلبه ويمد عنقه وظهره ويفتح أصابع يديه ويقبض على ركبتيه ثم يطمئن راكعا يقول : سبحان ربى العظيم ثلاثا» (٢) هذا هو المعنى الخاص أو الجديد للفظ، والذى يختلف عن المدلول الذى كانت تعرفه الجاهلية. والذى تشير إليه الأقوال الآتية :

---

(١) السابق (بتصرف) ١٦٣ وينظر القاموس (رطن).

(٢) تفسير القرطبى ١/٣٤٥ ط. دار الكتب.

١- قال السيوطى «وقد كانوا (أى العرب) يعرفون الركوع والسجود وإن لم يكن على هذه الهيئة. قال أبو عمرو: أسجد الرجل: طأطأ رأسه وأنشد : فقلن لم أسجد لليلى فأسجدا يعنى البعير إذا طأطأ رأسه لتركبه»[١].

٢- قال ابن فارس «الراء والكاف والعين أصل واحد يدل على انحناء فى الانسان وغيره وكل منحن راكع»[٢].

٣- يقول ابن الانبارى «ركع الرجل معناه فى اللغة قد انحنى، ويقال قد ركع الشيخ أو انحنى من الكبر. قال لبيد:

أليس ورائى وإن تراخت منيتى
لزوم العصى تحنى عليها الأصابع
أخبر أخبار الفروق التى مضت
أدب كأنى كلما قمت راكع[٣]

ولا أحسب أن أحد من الناس اليوم يعبر عن الشيخ الكبير بقوله : قد ركع الشيخ، والمعروف عن لبيد أنه لم يقل شعرا فى الاسلام.

٤- يقول الأعشى مادحا (جاهلى)[٤]

أربحى صلت يظل له القو
م ركوعا قيامهم للهلال

---

(١) المزهر ٢٩٣/١ ط. الحلبى.

(٢) المقاييس ٣٣٤/٢ وينظر اللسان ١٧١٩/٥ والصحاح ٤٨٣/٢ (سجد).

(٣) الزاهر ١٤٠/١ والبيتان فى البصائر للفيروزبادى ٩٨/٣.

(٤) جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى ٢٦٣ ط. دار نهضة مصر.

٥- يقول ابن دريد مشيرا إلى المعنى الأصلى «والراكع الذى يكون على وجهه، ومنه الركوع فى الصلاة. قال بشر بن أبى خازم الأسدى[١].

وأفلت حاجب فوت العوالى
على شفاء تركع فى الظراب

قوله (تركع) أى تكبو على وجهها، والشفاء: المنبسطة على وجه الأرض، والظراب: جمع ظرب وهو ارتفاع من الأرض لا يبلغ أن يكون جبلا»[٢].

ولعل فيما سبق ما يوضح ويفرق بين المعنى الأصلى والمعانى المجازيه لكلمة (ركع). وإذا كان الزمخشرى قد خالف المتوقع فى نظر البعض، فإن ذلك لا يعنى أنه - رحمه الله- قد غفل عما انتبهوا إليه، فربما كانت له رؤية خاصة أملتها ظروف عصره، الذي ولاشك يختلف عن عصرنا فى كثير من الأمور، واللغة بنت المجتمع كما يؤكد العلماء، وسوف نتعرض لرؤية الزمخشرى فى نهاية هذا البحث وبعد تحليل بقية المواد بإذنه تعالى.

مادة (س. ج. د):

وكما عالج الزمخشرى مادة (ركع) عالج هذه المادة فقال: «رجال ونساء سجد، وياتوا ركوعا سجودا، ورجل سجاد، وعلى

---

(١) جاهلى قديم ينظر ترجمته فى الشعر والشعراء ١٦٤ط بيروت والبيت فى الأساس دون نسبة (ركع).

(٢) جمهرة اللغة ٣٨٥/٢ وينظر المخصص ٨٧/١٣ والنهاية ٢٥٩/٢ ط. المكتبة الاسلامية.

وجهه سجادة وهى أثر السجود، وبسط سجادته وسجدته»[١] هذا فى المعنى الأصلى أو الحقيقى الذى درج على تقديمه على المعانى المجازية، وعندما وصل إلى المجاز قال «ومن المجاز شجر ساجد وسواجد، وشجرة ساجدة: مائلة، والسفينة تسجد للريح: تطيعها... وأسجد والبعير وأسجد: طامن رأسه لراكبه قال:

وقلن له أسجد لليلى فأسجدا[٢]

وهكذا يجعل الزمخشرى من المجاز سجود الشجر والبعير مع أنه معنى عام وقديم ومحس بالنسبة إلى السجود فى الصلاة الذى جعله من باب الحقيقة.

ويشير إلى ما سبق قول ابن فارس «السين والجيم والدال أصل واحد يدل على تطامن وذل»[٣] ويؤكده قول ابن دريد «أصل السجود إذامة النظر فى إطراق إلى الأرض وكذلك أسجد إذا أدام النظر أيضا»[٤] وقول ابن سيده «وأسجد البعير طأطأ رأسه وانحنى وأنشد:- وقلن له أسجد لليلى فأسجدا[٥] وقوله أيضا «وأطرق الرجل يطرق إطراقا إذا سجد ببصره إلى الأرض قال المتلمس:-

فأطرق إطراق الشجاع ولو يرى
مساغا لنابيه الشجاع لصمما[٦]

---

(١) الأساس ٢٠٣ (سجد).
(٢) الاساس ٢٠٣ (سجد).
(٣) المقاييس ١٣٣/٣ وينظر المزهر ٢٩٣/١، والصاحبى ٧٨.
(٤) الجمهرة ٦٦/٢.
(٥) المخصص ٧٨/١٣ وينظر الزينة لأبى حاتم ١٤٦/١.
(٦) السابق ٣٧٢/٢.

هذا وقد وردت كلمة (السجود) بمعناها الأصلى كثيرا فى الشعر القديم، فمنذلك قول النابغة : [١].

أودرة صدفيه غواصها بهج متى يرها يهل ويسجد

ومثله قول الأعشى [٢]:

وخرت تميم لأذقانها سجودا لذى التاج فى المعمعة

وقول لبيد يصف نخلا مائلة على الماء :

يشربن رفها عراكا غير صادرة

فكلها كارع فى الماء مفتخر

بين الصفا وخليج العين ساكنة

غلب سواجد لم يدخل بها الحصر

يصف نخلا تشرب ولا ترد عن الماء كالإبل فى هذا المكان. رفها : كلما أرادت: والصفا وخليج العين: أماكن. غلب : غلاظ الاعناق. والحصر: عدم نمو النبات جيدا » [٣] وتبدو فى البيتين سمات الشعر الجاهلى واضحة.

وقول عمرو بن كلثوم [٤]:

إذا بلغ الفطام لنا رضيع تخر له الجبابر ساجدينا

---

(١) الديوان ١٠٧ ط. دار المعارف وينظر أشعار الشعراء الستة للشنتمرى ٢٣٩/١.

(٢) جمهرة أشعار العرب لأبى زيد ١٣ ط. دار نهضة مصر.

(٣) الديوان ٥٦ والبيت الأخير في اللسان ١٣/ ١٩٤٠ ط. دار المعارف.

(٤) جمهرة أشعار العرب ٣٦٨.

وقول زيد الخليل الطائى يصف جيشاً[١]

بجيش تضل البلق فى حجراتــــه
ترى الأكم فيه سجدا للحوافـــر

هذا وغيره كثير مما يؤكد المعنى الأصلى أو الحقيقى للكلمة، وقد أشار الراغب إلى المعنيين الأصلى والحادث بقوله «السجود أصله التطامن والتذلل، وخص السجود فى الشريعة بالركن المعروف من الصلاة»[٢].

ومن الواضح أن السجود فى الجاهلية كان معنى عاماً يقع من الانسان والحيوان والنبات كما هو واضح من الأمثلة السابقة ثم خص فى الاسلام بمعنى واحد، وإذن فقد انتقلت الكلمة من الدلالة على هذا المعنى العام الذى كان معروفا فى الجاهلية وهو الانحناء والتطامن إلى الأرض إلى الدلالة على ذلك المعنى الخاص وهو السجود فى الصلاة بالهيئة المخصوصة التى وضحها القرطبى بقوله «جاء (أى السجود) مبينا فى حديث أبى حميد الساعدى أن النبى (ص) كان إذا سجد مكن جبهته وأنفه من الأرض ونحى يديه عن جنبيه ووضــع

---

(١) مخضرم وقد على النبى (ص) وسماه زيدا الخير (الشعر والشعراء ١٧٥ البيت فى شعراء اسلاميون لنورى حمودى القيس ١٧٩ والحجرات : النواحى. يصف الجيش بالكثرة بحيث لو ضلت البلق من الخيل على شهرتها لم يهتد إليها، وأن الأكام تخضع للحوافر وتلتصق بالأرض.

(٢) المفردات ٢٢٣.

كفيه حذو منكبيه، وروى مسلم قال : قال رسول الله(ص) (اعتدلوا فى السجود ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب) »[١].

ومن جهة أخرى فقد وردت الكلمة بمعناها الجديد هذا فى الشعر الاسلامى كثيرا فى مثل قول حسان يرثى عثمان رضى الله عنه[٢].

ضحوا بأشمط عنوان السجود به
يقطع الليل تسبيحا وقرآنا

وقول الراعى النميرى[٣]

أولى أمر الله إنا معشر
حنفاء نسجد بكره وأصيلا

أما فى القرآن الكريم فقد ردت الكلمة فى أكثر من ستين آية أكثرها بالمعنى الجديد ومنها قوله تعالى (سيماهم فى وجوههم من أثر السجود) [٤] قال الزمخشرى فى تفسيرها فى تفسيرها «أى من التأثير الذى يؤثره السجود »[٥] ومنها قوله تعالى (إذا يتلى عليهم يخردن للأذقان سجدا) [٦] وعلى المعنى القديم جاء قوله تعالي :

---

(١) تفسير القرطبى ١/٣٤٥. وينظر صحيح البخارى بحاشية السندى ١/ ٤٨. والنهاية ٢/٣٤٢.

(٢) ديوانه ٤٦٣ وأشمط: أبيض.

(٣) ديوانه ٢٢٩ ط. بيروت.

(٤) الفتح ٤٩.

(٥) الكشاف ٥٥٠.

(٦) الاسراء ١٠٧.

(والنجم والشجر يسجدان) [١] قال ابن الانبارى فى تفسيرها «معناه يستقبلان الشمس ويميلان معها حتى ينكسر الفئ» [٢].

وأحسب أن فيما سبق من تحليل توضيح كاف لكل من المعنيين القديم والجديد، وبيان لمسلك الزمخشرى تجاه كل منهما [٣].

مادة : (ص. و.م)

يتضح من الشواهد والتعريفات التى وردت فى كتب التراث أن العرب قد عرفوا كلمة (الصوم) بمعناها العام، وهو الامساك والامتناع المطلق عن أى شئ، ومن هنا قد يقع الصوم بهذا المعنى من الانسان كما يقع من الحيوان وغير الحيوان، كما سيتضح من التحليل التالى للمادة:

يقول ابن فارس «الصاد والواو والميم أصل يدل على إمساك وركود فى مكان» [٤] ونرى وضوحا أكثر فى قول ابن دريد «كل شئ سكنت حركته فقد صام صوما قال النابغة [٥]:

خيل صيام وخيل غير صائمة
تحت العجاج وخيل تعلك اللجما

---

(١) الرحمن ٦.

(٢) الزاهر ١٤١/١.

(٣) المقصود بالمسلك هو معالجته الزمخشرى لكلا المعنيين.

(٤) المقاييس ٣٢٣/٣ وينظر المزهر ٢٩٣/١.

(٥) البيت فى القرطبى ٢٧٢/٢ والزاهر ١٣٩/١ وغريب الحديث للهروى ٣٢٧/١ واللسان ٢٥٢٩/٤.

صاحب العين- الصوم- الصمت- وقوله تعالى (إنى نذرت للرحمن صوما) أى صمتا والصوم قيام بلا عمل، صام الفرس على آريه إذا لم يعتلف، وصامت الريح إذا ركدت، وصامت الشمس حين تستوى فى منتصف النهار»[١].

ومثله قول الهروى «يقال للقائم الساكت : صائم، ويقال للنهار إذا اعتدل: قام قائم الظهيرة، قد صام. قال امرؤ القيس :-

فدع ذا وسل الهم عنك بجسرة
ذمول إذا صام النهار وهجرا[٢]

ومن الجلى أن الكلمة فى الشواهد السابقة بمعناها العام، والذى يكشف بوضوح عن تلك البيئة البدوية في أخص مظاهرها، ولذا يقع الصوم بهذا المعنى العام من الانسان كما يقع من الحيوانات والريح والشمس والماء وهكذا.

وقد وردت الكلمة بهذا المعنى العام كثيرا في الشعر القديم، ومن ذلك قول الأعشى يصف ثورا وحشيا[٣]:

فبات عذوبا للسماء كأنما يوائم رهطا للعزوبة صيا

وقوله أيضا[٤]:

---

(١) المخصص ١٣/ ٩٠ ط. دار الآفاق.
(٢) غريب الحديث للهروى ٣٢٧/١ والبيت فى القرطبى ٢٧٣/٢ ومعناه أبطأت الشمس عن السير فصارت بالابطاء كالممسكة.
(٣) الديوان ٣٤٥ ط. بيروت.
(٤) السابق ١٣٣.

فشايعها ما أبصرت تحت درعهـــا
على صومنا واستعجلتها أناتهـــا

ومثله قول لبيد يصف حمار الوحش مع الأتان(١):

حتى إذا سلخا جمادى سنـــة جزءاً فطال صيامه وصيامها

وعليه قول الشماخ(٢):

فظل بها على شرف وظلت صياما حوله متغالبـــات

وقوله (٣):

برانية ينحط عنها معشـرا ويعلو عليها تارة فيصـــوم

وقوله(٤):

وظلت كأن الطير فـــوق رءوسهـــا
صياما تراعى الشمس وهو كظـوم

ومثله قول سحيم يصف ثورا وحشيا(٥):

---

(١) الديوان ١٦٩ ط. دار صعب. وسلخا : قضيا. جعل جمادى الاعلى الشتاء كله. جزءاً: اكتفيا بالرطب من الماء.

(٢) الديوان ٦٨ ط. دار المعارف ومتغاليات من تفالت الحمر: أى احتكت.

(٣) السابق ٣٠١ ومعشرا من التعشير، وعشر الحمار تابع النهيق عشر نهقات. ويصوم : يسكن ويسكت.

(٤) السابق ٣٠١ والضمير للأتن: أى ساكنة لا تتحرك. صياما: لا تنهق. كظوم: عطشان.

(٥) الديوان ٢٨ ط. دار الكتب ١٩٥٠م. وصـام النهـار : طال: والقنود: عيدان الرمل.

مرحا إذا صام النهار كأنما كسوت قتودى ناصع اللون طاويا

وهناك الكثير من هذه الأمثلة فى الدواوين وكتب التراث، وكما هو واضح فإن أكثرها- إن لم يكن كلها- فى صوم يقع من الحيوان وغيره، كالفرس والثور، والأتان، والريح والنهار، كما أنه صوم عن أى شئ، كالحركة والكلام والانتقال...الخ.

المعنى الجديد للكلمة :

اكتسبت كلمة (الصوم) معناها الجديد والخاص بعد ظهور الاسلام، ومن الطبيعى أن تكون هناك علاقة من نوع ما، بين المعنيين.

وقد أشار الجرجانى إلى هذا المعنى الجديد وعلاقته بالمعنى القديم بقوله :«الصوم فى اللغة مطلق الإمساك، وفى الشرع عبارة عن إمساك مخصوص، وهو الإمساك عن الأكل والشرب والجماع من الصبح إلى المغرب مع النية»(١).

كما أشار إليه القرطبى في قوله «والصوم فى الشرع : الإمساك عن المفطرات مع اقتران النية به من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وتمامه وكماله باجتناب المحظورات وعدم الوقوع فى المحرمات»(٢).

---

(١) التعريفات للجرجانى ١٣٦.

(٢) التفسير ٢/٢٧٣، وينظر تفسير الطبرى ٢/٧٥.

وبهذا المعنى الجديد وردت الكلمة فى الشعر الاسلامى فى مثل قول عمر والقنا بن عميرة العبدى[١]:

معى كل أواه برى الصـــوم جسمـــه
ففى الوجه منه نهكة وشحـوب

وقول فروة بن نوفل (أشجعى كونى عاصر عليا وعائشة)[٢].

لطافا براها الصوم حتى كأنهـــا
سيوف إذا ما الخيل تدمى كلومها

كما وردت بنفس المعنى المعروف فى الحديث الشريف فى مثل قوله صلى الله عليه وسلم (من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه)[٣].

من كل ما سبق يتضح أن المعنى الأسبق أو الأصلى للكلمة هو المعنى العام، أى الامساك من أى شئ عن أى شئ.

لكن الزمخشرى عندما عالج هذه المادة، جعل هذا المعنى العام القديم والأسبق من باب المجاز، وجعل المعنى الجديد والخاص فى باب الحقيقة يقول «صوم.. هو شهر الصوم والصيام، ومن المجاز هذا مصام الفرس، وخيل صائمة، وصام الفرس علـى آريـه إذا لـم

---

(١) الشاعر من تميم اسلام حارب مع فطرى بن الفجاءة. ديوان الخوارج. ١٤٧ والكامل للمبرد ١٤٦/٣.

(٢) ديوان الخوارج ١٥٨.

(٣) البخارى بشرح الكرمانى ١٥٩/١ ط. دار التراث.

يعتلف... وصامت الريح : ركدت. وصامت الشمس: كبدت. وجئته والشمس فى مصامها »[١].

وأحسب أن معرفة العرب بصوم الريح والشمس والفرس كانت أسبق وأشهر من معرفتهم بذلك المعنى الجديد والخاص، فالمعنى العام ألصق بحياتهم، ويتناسب مع قدراتهم العقلية، وحياتهم الاجتماعية فى ذلك الوقت، والأدب مرآه عصره فى مختلف جوانب الحياة. لكن يبدو أنه كانت للزمخشرى رؤيه معينه، وسنحاول تفسيرها فى نهاية البحث.

مادة : (ج. هـ.د)

وعلى نفس النهج عالج الزمخشرى هذه المادة، إذ جعل جهاد العدو ومجاهدته- وهو معنى إسلامى جديد من باب الحقيقة فقال «واجتهد فى الأمر وجاهد العدو (ثم قال) ومن المجاز سفاه لبنا مجهودا وهو الذى أخرج زبده »[٢].

وكتب اللغة تشير إلى أن (الجهد والجهد) لغتان فصيحتان وهما بمعنى واحد (المشقة) [٣] ومن هذا الجذر أخذت كلمه (الجهاد) واكتسبت معناها الجديد الذى شاعت به فى الاسلام.

يقول الخليل «الجهد ما جهد الانسان من مرض أو أمر شاق، والجهد : بلوغك غاية الأمر الذى لا تألو عن الجهد فيه. وجاهدت

---

(١) الأساس ٢٦٢ (صوم).

(٢) الاساس (جهد).

(٣) جمهرة اللغة ٢/٧١ وأدب الكاتب لابن قتيبة ٣٠٨ بيروت. والعين للخليل ٣/٣٨٦ ط. دار الرشيد بغداد ١٩٨١م.

العدو مجاهدة: وهو قتالك إياه»[١] وقد وردت الكلمة فى القرآن الكريم بمشتقاتها فى أكثر من أربعين موضعا، منها قوله تعالى :(لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما)[٢].

كما وردت فى الحديث الشريف بنفس المعنى المتعارف، فقد روى البخارى (سئل صلى الله عليه وسلم عن أى الأعمال أفضل فقال : (إيمان بالله ورسوله قيل ثم ماذا قال الجهاد فى سبيل الله) وقال صلى الله عليه وسلم (لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية)[٣] وقال ابن الاثيرمشيرا إلى هذا المعنى أيضا (الجهاد مجاربة الكفار وهو المبالغة واستفراغ ما فى الوسع والطاقة)[٤].

كما وردت الكلمة بهذا المعنى فى الشعر الاسلامى كثيرا، فى مثل قول عروة بن زيد الخيل الطائي فى معركة نهاوند[٥]:

فأصبح همى فى الجهاد ونيتى فلله نفسى أدبرت وتولت

---

(١) العين ٣٨٦/٣ وينظر المفردات للراغب ١٠١ ط. دار المعرفة.

(٢) النساء ٩٥ وينظر القرطبى ٣٤١/٥ ط. دار الكتب.

(٣) صحيح البخارى بحاشية السندى ١٢٦/١ ط. الحلبى.

(٤) النهاية ٣١٩/١ وينظر الفائق للزمخشرى ٢٤٩/١ ط. بيروت.

(٥) سبق التعريف به وينظر الاخبار الطوال لأبى حنيفة الدينورى ١٣٨ ط. الارشاد.

وقول النابغة الجعدى (مخضرم) [١]:

وجاهدت حتى مـا أحسن ومـن معـى
سهيـلا إذا مـا لاح ثمـث غـوراً

وقول حسان [٢]:

وجاهدوا فى سبيل اللـه واعترفـوا
للنائبـات فماخامـوا ولا ضجـروا

وقول كعب بن مالك [٣]:

فلما لقيناهم وكل مجاهـد لأصحابه مستبسل النفس صابر

هذا وغيـره كـثيـر مما يؤكـد شـيـوع الكلمـة بمعناها الجـديد فى الاسـلام، كـما يدل على أقـول وتراجع المعنى القـديم أمـام زحف المعنى الجديد واحتلاله لموقع الصدارة بين معانى الكلمة.

وقد ذكر الفيـروزبادى عدة معان للكلمة كما وردت فى القرآن الكريم منهـا : جـهـاد النفس، ومـجـاهدة الشـيطان، ومـجاهدة الكفـار بالحجـة والبرهان، ثم قـال فى آخر عـبارته «والحق أن يقـال : المجاهدة ثلاثة أضرب : مـجاهدة العدو الظاهرة، ومجاهدة الشيطان، ومـجاهدة النفس، وتدخل جميعها فى قوله تعالى (وجاهـدوا فـى اللـه حـق

---

(١) الاغانى ٤/ ١٣٠ ط. مؤسسة جمال للطباعة..

(٢) الديوان ٢٥٢.

(٣) الديوان ٢٠٠ ط. بغداد.

جهاده) [١] وفى الحديث (جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم) [٢].

ولعل فيما سبق ما يشير إلى أن المعنى الرئيسى هو قتال العدو، وما عداه يدخل فى عداد المعانى الفرعية أو الثانوية التى يستدعيها السياق والموقف، ولعل أغلب هذه المعانى قد جاء نتيجة التوسع فى مدلول اللفظ، كما هو الشأن فى كثير من الألفاظ.

وهكذا كانت معالجة الزمخشرى للمواد السابقة. وهناك مواد أخرى عالجها الزمخشرى بنفس الطريقة مثل مواد (ح.ج.ج)، (هـ.د.ى)، (ح.ر.م) حيث وضع المعنى الأسبق والحقيقى فى باب المجاز [٣]، فى حين وضع بعض المعانى المجازية فى باب الحقيقية. على نحو ما أسلفنا.

غير أن الزمخشرى قد سلك مسلكا مغايرا لمسلكه السابق، إذ رجع إلى الأصل فجعل المعنى الأقدم أو الأصلى فى باب الحقيقة، وسوف نستعرض هذا الاتجاه أيضا من خلال تحليل بعض المواد التى وردت فى الأساس على النحو الذي سبق.

اتجاه مغاير

قد يقال بأن مثل هذه الألفاظ السابقه تعد من الألفاظ الاسلامية التى كانت تحمل قبل الاسلام معانيها الأصلية، ثم حملت

---

(١) الحج ٧٨.

(٢) البصائر ٤٠١/٢ ط. المكتبة العلمية- بيروت.

(٣) يراجع تعريف كل من الحقيقة والمجاز فى مفتاح العلوم للسكاكى ٣٥٨-٣٦٣ ط. دار الكتب العلمية- بيروت.

فى الاسلام بعض المعانى التى أقتضتها الحياة الجديدة، ثم شاعت تلك الألفاظ بمعانيها الجديدة، حتى غلبت على المعانى القديمة- ومن ثم تحولت هذه المعانى الجديدة إلى حقيقة فى تلك الألفاظ. وقد أشار إلى ذلك أبو هلال العسكرى بقوله «كانت هذه أسماء تجرى قبل الشرع على أشياء، ثم جرت في الشرع على أشياء أخر، وكثر استعمالها حتى صارت حقيقة فيها، وصار استعمالها علي الأصل مجازاً، ألا ترى أن استعمال الصلاة اليوم فى الدعاء مجاز وكان هو الأصل.. وكذلك الغائط كان اسما للمطئن من الأرض، ثم صارت فى العرف اسما لقضاء الحاجة حتى لا يعقل عند الاطلاق سواه»(١).

وعلى ذلك يكون الزمخشرى قد ارتضى هذا المسلك فسار عليه، ومن ثم جعل المعنى الجديد- لشهرته - حقيقة وأصلا، وجعل باقى المعانى من المجاز حتى لو كانت أسبق في الظهور من غيرها.

ولكن ذلك يمكن نقضه من جهتين :

الأولى : أن الزمخشرى لم يسلك هذا المسلك دائما، فقد سلك عكسه فى بعض المواد الأخرى كما سنرى.

الثانى: أن العلماء مختلفون فى شأن هذه الألفاظ وغيرها مما جاء به الشرع.

وسوف نعرض بشئ من التفصيل لكل من الأمرين السابقين فى السطور التالية :

فأما مسلك الزمخشرى المغاير فسوف نستعرضه من خلال تحليل بعض المواد وسوف نرى أنه رجع إلى الأصل فوضع المعنى

---

(١) الفروق ٥٦ ط. دار الآفاق.

الأقـدم فى باب الحـقـيـقـة، فى حين وضع المعنى المشـهـور فى باب المجاز. ولم يجعله من الحقيقة على الرغم من شهرته. وإليك بعض هذه المواد.

مادة : (ن. ف.ق)

قال الزمخشرى «وأنفق الرجل على عياله واستنفق... وخذ هذه الدراهم فاستنفقها، ونفقت نفقة القوم، ونفقاتهم ونفاقهم، وهو ينبغى نفقا فى الأرض وأخذوا عليه الأنفاق، ونفق اليربوع وانتفق: خرج من نافقائه، ونفق ونافق: دخل فيها، وتنفقته: أخرجته منها، ونفقت سلعته نفاقا، ونفقتها. قال سدوس ابن ضباب :

عبد ينفق نفسه ويسومها ويقول إنى آبر زراع

وانفق التاجر : نفقت تجارته.. (ثم قال) «ومن المجاز : فرس نفق الجرى إذا كان قصير الغاية قريب مدى الجرى قال علقمة:

فلا تزيده فى مشيه نفق ولا الزفيف دون الشد مسئوم

ومنه نفقت الدابة نفوقا، ونافق الرجل نفاقا، وامرأة نفق بوزن فنق: تنفق عند الأزواج»[1].

وهنا يمكن ملاحظة مايلى :

١- أن الزمخشرى جعل نفاق الرجل من المجاز وهو معنى جديد لكنه مشهور، بل هو أشهر معانى الكلمة، فكان المتوقع أن يوضع فى باب الحقيقة.

---

(١) الأساس (نفق).

٢- أنه جعل من المجاز نفوق الدابة، وهو معنى قديم ومعروف عند العرب، كما أنه مادى محس، ويعكس البيئة العربية التى جعلت من الأبل والغنم عمود حياتها فى المأكل والملبس والمسكن، ومن ثم كان أقرب إلى المعانى الحقيقية، بخلاف نفاق الرجل فهو معنى مجرد وإن كان قد حاز الشهرة والذيوع على الستة المتكلمين، إلا أنه لم يعرف إلا بعد ظهور طائفة من الناس تبطن الكفر وتظهر الايمان. ولعل فى النقول الآتية توضيحا لهذين الأمرين.

تشير كتب اللغة والمعاجم إلي أن العرب قد عرفوا النفق فى الأرض، كما عرفوا نفوق الدابة، ونافقاء اليربوع، وكلها معان محسة تشاكل حياة العرب فى الجاهلية. لكن العرب لم يعرفوا نفاق الرجل بالمعنى الذى شاع فى الاسلام وهو إظهار الايمان وإبطان الكفر وهو ما تؤكده أقوال العلماء.

قال الخليل «والنفق : سرب فى الأرض له مخلص إلى مكان، والنافقاء: موضع يرفقه اليربوع فى جحره» (١) وقال ابن دريد «القاصعاء والنافقاء وهى حجران من حجرة اليربوع. القاصعاء ما قصع أى دخل فيه والنافقاء ما خرج منه» (٢) وقال ابن منظور «نفق الفرس والدابة وسائر البهائم ينفق نفوقا : مات ... والنفق: سرب فى الأرض، مشتق إلى موضع آخر؛ وفى التهذيب: له مخلص إلى مكان

---

(١) العين ١٧٧/٥ ط. دار الرشيد ١٩٨١م.

(٢) أدب الكاتب ابن قتيبة ١٧٣.

آخر والجمع أنفاق، واستعاره امرؤ القيس لحجرة الفئرة فقال يصف فرسا:

خفاهن من أنفاقهن كأنما خفاهن ودق من عشى مجلب

والنفقة والنافقاء: حجر اليربوع»[١].

هذا أصل معنى الكلمة ويدور حول نافقاء اليربوع ونفوق الدابة وهو معنى مادى محس ويحكى مظاهر الحياة المعروفة فى الجزيرة العربية.

معنى الكلمة فى الإسلام:

تولد من كلمتى (النافقاء، والنفق) كلمة النفاق واكتسبت معناها الجديد فى الاسلام، والذى لم يكن للعرب عهد به من قبل، وإلى ذلك تشير كتب اللغة. فيقول ابن فارس «وأما المنافق فاسم جاء به الاسلام لقوم أبطنوا غير ما أظهروه»[٢]. ومثله قول السيوطى «فكان مما جاء فى الاسلام ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق»[٣].

وإذن فقد انتقلت من معناها المادى المحس إلى الدلالة على معنى مجرد استحدث فى الاسلام، والمناسبة بين المعنيين واضحة، فاليربوع يظهر باب من أبواب جحره ويخفى الآخر ليخرج منه عند الخطر، وهذا قريب مما يفعله المنافق، وقد أشارت إلى هذا التغير

---

(١) اللسان ٦/٤٥٠٧ وينظر الزينه لابى حاتم ١/١٤٠.

(٢) الصاحبى ٧٨ ط. الحلبى.

(٣) المزهر ١/٢٩٣.

كثير من كتب اللغة والأدب، فمن ذلك قول ابن الأثير «وقد تكرر فى الحديث ذكر النفاق وما تصرف منه، وهو اسم اسلامى لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به، وهو الذى يستر كفره ويظهر إيمانه، وإن كان أصله فى اللغة معروفا، وهو مأخوذ من النافقاء أحد جحره اليربوع إذا طلب من واحد هرب إلى الآخر وخرج منه، وقيل هو من النفق وهو السرب الذى يستتر فيه»(١).

ومنه قول المبرد «والنفاق أن يستر خلاف ما يبدى هذا أصله، وإنما أخذ من النافقاء والراهطاء والدماء والسابياء ويقال للسابياء القاصعاء، وأخذ من سابياء الولد، وهى الجلدة الرقيقة التى يخرج منها الولد من بطن أمه، قال الأخطل يضرب ذلك مثلا ليربوع بن حنظلة لأنه سمى باليربوع.

تسد القاصعاء عليه حتى ينفق أو يموت بها هزالا(٢)

ويفهم من كلام المبرد أن المعنى كان عاما وهو إسرار خلاف ما يبدى مطلقا، ثم خص بإسرار الكفر وإظهار الايمان، وأحسب أن ذلك اجتهاد منه أو قياس على غيره، لأن المعنى الأصلى ارتبط بسلوك حيوان من حيوانات الصحراء، فهو معنى خاص بسلوك ذلك الحيوان، أما المعنى الجديد فقد ارتبط بظهور طائفة من الناس لها سلوك

---

(١) النهاية ٥/٩٨.

(٢) الكامل ١/٣٥١.

مشابه، إذ يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر خاصة، وإذن فالأمر ليس إظهار شئ وإخفاء آخر، بل إظهار شئ معين وإخفاء شئ معين[١].

وقد وضح صاحب اللسان العلاقة بين المعنيين القديم والجديد بقوله :«سمى المنافق منافقا للنفق وهو السرب فى الأرض وقيل : إنما سمى منافقا لأنه نافق كاليربوع وهو دخوله نافقائه، فهو يدخل فى النافقاء ويخرج من القاصعاء، فيقال هكذا يفعل المنافق يدخل الاسلام ثم يخرج منه من غير الوجه الذى دخل فيه. تقول : نفق تنفيقا ونافق أى دخل فى نافقائه ومنه اشتقاق المنافق فى الدين، والنفاق بالكسر فعل المنافق، والنفاق: الدخول فى الاسلام من وجه والخروج عنه من آخر. مشتق من نافقاء اليربوع إسلامية»[٢]. وسواء أكان الاشتقاق من نافقاء اليربوع أم من السرب فى الأرض الموصل إلى موضع آخر، فالمؤدى واحد لوجود أكثر من مخرج ولإخفاء أمر وإظهار آخر، وهو معنى متحقق فى المعنيين الأصلى والفرعى بصوره ما، وهو ما يسوغ الانتقال فى الدلالة.

يقول ابن دريد «النفق: السرب فى الأرض والنافقاء اليربوع لأنه ينفق فيه أى يدخل فيه وقال قوم يخرج منه ومنه اشتقاق المنافق لخروجه عن الدين والاسم النفاق»[٣]. ومثله قول الراغب «والنفق

---

(١) هذا مبنى على ما أكده العلماء أن كلمة النفاق لم تعرف بمعناها المشهور إلا فى المدينة وبعد ظهور الاسلام وظهور طائفة من الناس تظهر الايمان وتبطن الكفر أما المعنى القديم فهو مرتبط بالاستعمال الجاهلى للكلمة فى شأن ذلك الديوان.

(٢) اللسان ٦/٤٥٠٧ ط. دار المعارف.

(٣) جمهرة اللغة ٣/١٥٥ ط. دار صادر بيروت.

الطريق النافق والسرب فى الأرض النافذ فيه قال تعالى (فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض) [١] ومنه نافقاء اليربوع وقد نافق اليربوع ونفق ومنه النفاق وهو الدخول فى الشرع من باب والخروج عنه من باب، وعلى ذلك نبه بقوله (إن المنافقين هم الفاسقون) [٢] أى الخارجون من الشرع» [٣]. وقد جمع ابن فارس بين الأصلين فى قوله :

«النون والفاء والقاف أصلان صحيحان يدل أحدهما على انقطاع شئ وذهابه والآخر على خفاء شئ واغماضه، فالأول: نفقت الدابة: ماتت. والأصل الآخر النفق : سرب فى الأرض له مخلص إلى مكان والنافقاء موضع يرققه اليربوع من جحره فإذا أتى من قبل القاصعاء ضرب النافقاء برأسه فانتفق أى خرج، ومنه اشتقاق النفاق لأن صاحبه يكتم خلاف ما يظهر فكأن الايمان يخرج منه أو يخرج هو من الايمان فى خفاء، ويمكن أن يكون الأصل فى الباب واحد وهو الخروج» [٤] وقال ابن قتيبة «النفاق فى اللغة مأخوذ من نافقاء اليربوع: وكذلك المنافق يدخل فى الاسلام باللفظ ويخرج منه بالعقد والنفاق لفظ اسلامى لم تكن العرب قبل الاسلام تعرفه» [٥].

---

(١) الانعام ٣٥.

(٢) التوبه ٦٧.

(٣) المفردات للراغبى ٥٠٢ دار المعرفة. بيروت.

(٤) المقاييس ٤٥٤/٥ وينظر نفس المعنى فى البصائر للفيروزبادى ٥/ ١٠٥ وغريب الحديث للهروى ١٣/٣ وتفسير القرطبى ١٩٥/١.

(٥) تفسير غريب القرآن. لابن قتيبة ٢٩ط الحلبى ١١٩٥٨.

وقد جمع ابن الأنبارى كل الأقوال السابقة فى اشتقاق المنافق[١] ولا يرى الباحث ثمة ما يمنع أن يكون المنافق منافقا لكل هذه الأمور، فهو يدخل الاسلام بلسانه ويخرج بقلبه، كما يتستر بالايمان حتى لا ينكشف سره، وهو في نفس الوقت يظهر خلاف ما يبطن، فكأنها أوجه شبه بين الصورتين، ووجه الشبه يمكن أن يتعدد.

وقد أشار أبو هلال إلى مراحل تطور الكلمة فى معرض حديثه عن الفرق بين النفاق والرياد فقال «النفاق إظهار الإيمان مع إسرار الكفر ولا يقع هذا الاسم على من يظهر شيئا ويخفى غيره إلا الكفر والايمان، وهواسم إسلامى والاسلام والكفر اسمان إسلاميان، فلما حدثا وحدث فى بعض الناس إظهار احدهما مع إبطان الآخر سمى ذلك نفاقا. والرياء إظهار جميل الفعل رغبة فى حمد الناس، لا فى ثواب الله، فليس الرياء من النفاق فى شئ فإن استعمل احدهما مكان الآخر فعلى سبيل التشبيه والتجوز والأصل ما قلناه»[٢].

كما وردت الكلمة بهذا المعنى فى الحديث الشريف ومنه قوله عليه السلام «آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب...»[٣]، وقوله صلى الله عليه وسلم «آية الايمان حب الأنصار وآية النفاق بعض الأنصار»[٤] وقوله عليه السلام «أربع من كن فيه كان منافقا خالصا..»[٥].

---

(١) الزاهر ٢٢٩/١. ط. بغداد ١٩٨٧م.
(٢) الفروق ٢٢٣ ط. بيروت ١٩٨٣م.
(٣) البخارى بشرح السندى ١٤٧/١ ط. الحلبى.
(٤) السابق ١٠٣/١.
(٥) السابق ١٥/١.

وقد جاءت الكلمة بمعناها الاسلامى الجديد فى قول حسان[١].

وكم رددنا ببدر دون ما طلبوا أهل النفاق وفيفا أنزل الظفر

وهكذا يتضح أن كلمة (نافق) كلمة قديمة تخلى عنها معناها الذى ارتبطت به فى الجاهلية، وتراجع أمام طغيان المعنى الجديد وانتشاره، وعلى الرغم من ذيوع هذا المعنى وانتشاره إلا أن الزمخشرى جعل من المجاز نفاق الرجل ونفوق الدابة كما رأينا.

ولمزيد من البيان سوف نستعرف مادة أخرى من مواد الأساس.

مادة : (ص. ل.ى)

وردت كلمة (الصلاة) ومشتقاتها كثيرا فى القرآن الكريم، مقترعة بالزكاه ومنفردة عنها، ومقصودا بها الهيئات المخصوصه، ومن ذلك قوله تعالى (أقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل)[٢] قال القرطبى فى تفسيرها «لم يختلف أهل التأويل فى أن الصلاة فى هذه الآية قصد بها الصلوات المفروضة»[٣]. يقول الجرجانى «الصلاة في اللغة الدعاء وفى الشريعة عبارة عن أركان مخصوصة وأذكار معلومة بشرائط محصورة فى أوقات مقدرة»[٤].

ومع اختلاف العلماء في اشتقاقها فإننا سنجد أكثرهم على أنها من الدعاء، وهذا ما توضحه أقوال السابقين.

---

(١) ديوانه ٢٥٢ وينظر الكامل للمبرد ٤٢٢/١.

(٢) هود ١١٤.

(٣) تفسير القرطبى ١٠٩/٩ وينظر تفسير الطبرى ٢٦/٢ والكشافا ٣/ ٢٧٢.

(٤) التعريفات ١٣٤ ط. دار الكتب العلمية بيروت.

قال ابن فارس «الصاد واللام والحرف المعتل أصلان أحدهما النار وما أشبهها والآخر جنس من العبادة» [١] ويقول الراغب «الصلاة : قال كثير من أهل اللغة هى الدعاء يقال صليت له أى دعوت له. . .والصلاة التى هى العبادة المخصوصة أصلها الدعاء وسميت هذه العبادة بها كتسمية الشئ باسم بعض ما يتضمنه» [٢] أى أنها من تسمية الكل باسم الجزء أو إطلاق الجزء على الكل، ومثله قول ابن سيده «الصلاة فى اللغة الدعاء قال الأعشى فى الخمر [٣] :-

وقابلها الريح فى دنها وصلى على دنها وارتسم

وسميت صلاة لما فيها من الدعاء» [٤] كما أشار إليها صاحب الزينة بقوله «فكانوا يعرفون الصلاة أنها الدعاء قال الاعشى فى صفه الخمر:

فإن ذبحت صلى عليها وزمزما» [٥]

وقال ابن الاثير مشيرا إلى أصل اشتقاقها «وقد تكرر ذكر الصلاة والصلوات وهى العبادة المخصوصة وأصلها فى اللغة الدعاء

---

(١) المقاييس ٣/ ٣٠٠.

(٢) المفردات ٢٨٥.

(٣) البيت فى الديوان ٨٥ ط. بيروت وتفسير القرطبى ٦٨/١ والزاهر ١٣٨/١ واللسان ٢٤٨٩/٤. وفى تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ٤٦٠. ط. دار التراث.

(٤) المخصص ٨٥/١٣.

(٥) الزينة لأبى حاتم ١٤٧/١ والذبح : الشق. وزمزم: ترنم

فسميت ببعض أجزائها »[١] ومثله قول الطبرى فى تفسير قوله تعالى (الذين يقيمون الصلاة)[٢] يعنى الصلاة المفروضة هنا وأما الصلاة فى كلام العرب فهى الدعاء كما قال الأعشى:

لها حارس لا يبرح الدهـــر بيتهـــا
وإن ذبحت صلى عليها وزمزمـــا

يعنى بذلك وعالمها »[٣]

وأحسب أن النصوص السابقة تؤكد شيوع الصلاة فى معنى الدعاء عند الجاهليين ومن مجيئها بهذا المعنى عندهم قول الأعشى[٤].

تقول بنتى وقـد قربـت مرتحـلا
يارب جنب أبى الأوصاب والوجعا
عليك مثل الذى صليت فاغتمضـــى
نوما فإن لجنب المرء مضطجعـــا

أما بمعناها الاسلامى فقد وردت فى الشعر فى مثل قول عدى بن سويد (مخضرم)[٥]

تركت الشعر واستبدلت منه إذا داعى صلاة الصبح قاما

---

(١) النهاية ٣/٥٠.

(٢) البقره ٣.

(٣) تفسير الطبرى ١/٨٠.

(٤) الديوان ١٥١ وجمهرة اشعار العرب ١٠.

(٥) ديوان الخوارج ٢٤ ط. بيروت.

وقول عمران بن حطان[١]

أما الصلاة فإنى غير تاركها كل امرئ للذى يعنى به ساعى

وقول حسان في رثاء النبى عليه السلام[٢]

وواضح آيات وباقى معالم وربع له فيه مصلى وسجـــد

ومن الواضح أن أكثر العلماء على أن الصلاة المفروضه أصلها الدعاء إلا أن بعض العلماء يرى أنها من الصلا أو من اللزوم وقد وضح القرطبى رأى هؤلاء بقوله «هى مأخوذه من الصلا وهو عرق وسط الظهر ومنه أخذ المصلى فى سبق الخيل لأنه يأتى فى الحلبه ورأسه عند صلوى السابق فاشتقت الصلاة منه، إما لأنها جاءت ثانية للايمان فشبهت بالمصلى من الخيل وإما لأن الراكع ثنى صلواه، والصلا مغرز الذنب من الفرس، والمصلى تالى السابق لأنه رأسه عند صلاه، وقال على رضى الله عنه سبق رسول الله عليه وسلم وصلى أبو بكر وثلث عمر. وقيل مأخوذ من اللزوم ومنه صلى بالنار أو لزمها ومنه (تصلى نارا حامية) [٣] وكأن المعنى على هذا ملازمة العبادة على الحد الذى أمر الله تعالى به»[٤].

وأحسب أن فى هذين الرأيين تأولا بعيداً يمكن الاستغناء عنه بالرأى الأول لأنه أقرب وأوضح، وقد ذكر الزمخشرى هذا الرأى وقال «وفيه ضعف من وجهين :

---

(١) السابق ١٢٠.
(٢) الديوان ١٤٢ وبيروت ١٩٨١م.
(٣) الغاشية ٤.
(٤) القرطبى ١٦٨/١.

١- أن الاشتقاق مما ليس يحدث قليل.

٢- أن الصلاة بمعنى الدعاء سائغ في أشعار الجاهلية ولم يرد عنهم اطلاقها على ذات الاركان بل ما كانوا يعرفونها، فأنى لهم التجوز عنها فالأولى ما ذهب إليه الجمهور من أن الصلاة حقيقة فى الدعاء مجاز لغوى فى الهيئات المخصوصة المشتملة عليه»[١].

وأحسب أنه يمكن أن يضاف إلى كلام الزمخشرى أن هذا المجاز قد كثر استعماله حتى غلب على الحقيقة واحتل مكانها بدليل أن الكلمة إذا أطلقت الان لم تتصرف إلا إلى الهيئات المخصوصه، مما يدل على شهرة الكلمة فى معناها الجديد أكثر من معناها الاصلى.

ومع أن الزمخشرى صرح فى كشافه - كما سبق- بأن الكلمة حقيقة فى الدعاء وهو ما يفهم منه بأن هذا المعنى هو الأصل، إلا أن كلامه فى الأساس يفهم منه عكس ذلك[٢] فقد جعل الكلمة حقيقة فى الهيئات المخصوصه فقال فى القسم الحقيقى «خرجوا إلى المصلى، واجتمعت اليهود لعنت في صلاتهم وصلواتهم. وهى كنائسهم» وذكر فى المجاز «سبق رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى أبو بكر...»[٣].

هذا ويمكن أن نرى أمثلة مشابهة للمواد السابقة فى الأساس، ففى مادة (نشز) جعل نشوز المرأة من باب المجاز، وفى مادة (لحد)

---

(١) ينظر الكشاف ١٣١/١ وينظر أدب الكاتب لابن قتيبة ١٣٦.

(٢) ينظر الأساس (صلى) ٢٥٨ ط. دار المعرفة.

(٣) الاساس (صلى) ط. دار المعرفة.

جـعل الإلحـاد فى دين الله من المجـاز، مع شـهـرة كل من المعنيين واحتلاله للصدارة بين معانى الكلمة.

هذا كله فيما يتعلق باتجاه الزمخشرى المغاير لاتجاهه السابق، أما الأمر الثانى والخاص برأى العلماء فى تلك الألفاظ الاسلامية فسنتعرض لها فى السطور التالية :

آراء العلماء فى الألفاظ الاسلامية :

اختلف العلماء هذه الألفاظ وغيرها مما جاء به الشرع «هل هى مبقاة على أصلها اللغوى الوضعى الابتدائى، والشرع إنما تصرف بالشروط والأحكام، أو هل تلك الزيادة من الشرع تصيدها موضوعة كالوضع الابتدائى من قبل الشرع؟ هنا خلاف، والأول أصح، لأن الشريعة ثبتت بالعربية، والقرآن نزل بلسان عربى مبين، ولكن للعرب تحكم فى الأسماء، كالدابة وضعت لكل ما يدب ثم خصها العرب بالبهائم، فكذلك لعرف الشرع تحكم في الأسماء»[1].

وإذن فالقرطبى يرى أن هذه الأسماء مبقاة على أصلها اللغوى، وتصرف الشرع فيها إنما جاء بالشروط والأحكام غير أن بعض العلماء قد تعرض لهذه القضية بشئ من التفصيل، فذكر أن الشارع يستعمل ألفاظا عربية في معان لم تعرفها اللغة. فهل كان هذا الوضع وضعا مبتدأ لا صلة له بمعانيها الأصلية كما يضع المحترفون الأسماء لأدواتهم؟ أم لا تزال هذه الألفاظ مستعملة فى معانيها الأصلية دون نقل؟ أم تم نقلها عن طريق المجاز إلى معان ترتبط

---

(١) ينظر تفسير القرطبى ١٦٩/١، ١٧٠ والزينة لأبى حاتم ١٣٤/١.

بمعانيها الأصلية ثم ذاعت معانيها الجديدة حتى صارت حقيقة فيها ؟.

للعلماء فى ذلك ثلاثة آراء نوجزها فيمايلى :

١- يرى الباقلانى أن هذه الألفاظ مستعملة فى معانيها اللغوية الأصلية والتصرف فيها إنما تم بشروط معينة وقيود خاصة يتحقق بها المعنى الشرعى المقصود.

٢- يرى الخوارج والمعتزلة وجماعة من العلماء أن الشارع يجرد الألفاظ من معانيها اللغوية ويضعها وضعا مبتدأ لمعانيها الشرعية الجديدة.

٣- ينكر الغزالى والرازى وجماعة- وهو مذهب التوسط- أن تكون هذه الألفاظ منقولة نقلا كليا عن معانيها الأصلية كما قال بذلك الخوارج والمعتزلة. كما ينكرون أن تكون باقية عليها من غير تصرف فيها إلا بوضع القيود والشروط كما قال بذلك الباقلانى، ويرون أن الشارع تصرف فى الألفاظ العربية كما هو الشأن فى تصرف العرف بهذه الألفاظ فخصص بعض الأسماء ببعض مسمياتها وأطلق بعضها الآخر على ماله صلة بمعناها. وهكذا (١).

ولعل الرأى الأخير، هو الأقرب إلى القبول لأنه لا يعقل أن تكون هذه الألفاظ موضوعة كالوضع الابتدائى من قبل الشرع، لأن الاسلام وتعاليمه ثبتت بالعربية - كما يقول القرطبى- كما أنه لا

---

(١) ينظر أصول التشريع الاسلامى للشيخ على حسب الله ط. دار المعارف ٢٤٣-٢٤٦.

عهد لنا بمثل هذا الوضع الفجائى الذى ينتزع الألفاظ من معانيها انتزاعا، ثم يربطها بمعان جديدة، دون أن يكون لسنة التغير اللغوى دخل فى ذلك، وربما يؤكد ذلك أن أغلب هذه الألفاظ ألفاظ قديمة خلع عليها الاسلام معانيها الجديدة، وهو أمر مألوف فى كل اللغات، كما أن بعضها الآخر مشتق من جذور عربية أصيلة، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن القول بأنها مبقاة على أصلها اللغوى فيه تجوز كبير، لأن هذه الألفاظ بعد خلع المعانى الجديدة عليها كثر استعمالها فى هذه المعانى، على ألسنة ملايين المتكلمين حتى صارت هذه المعانى كالحقائق فيها، فى حين تنوسيت أغلب المعانى الأصلية، بل لم تعد تخطر هذه المعانى بذهن أحد حين تذكر معظم هذه الألفاظ، ويؤكد ذلك كلام أبى هلال العسكرى السابق[1].

ومن هنا يميل الباحث إلى أن هذه الألفاظ ليست مبقاة على أصلها اللغوى، كما أنها لم توضع ابتداءً وإنما جرت عليها سنة التطور اللغوى كما تجرى فى سائر اللغات، ولاسيما مع ظهور الاسلام وتبدل أوضاع كثيرة في السياسة والاقتصاد والأخلاق فى البيئة العربية، ولذا وجدنا بعض الألفاظ يضيق مدلولها وأخرى يتسع مدلولها، في حين ينتقل بعضها من الارتباط بمدلول معين إلي الارتباط بمدلول جديد، ولعل من نافقة القول أن نقول بأنه فى كل الأحوال السابقة تكون هناك مناسبة من شبه أو غيره بين المدلولين الأصلى والحادث لكل لفظ. بعد هذا العرض لا يبقى إلا محاولة تفسير مسلك الزمخشرى الذى عرضنا أمثله له.

---

(١) الفروق ٥٦ ط. دار الآفاق.

-توجيه مسلك الزمخشرى-

وأحسب أنه يمكن تفسير مسلك الزمخشرى وتوجيهه على النحو التالى :

نظر الزمخشرى إلى المعنى الأكثر شهرة بين معانى الكلمة، وجعله فى باب الحقيقة، ويستوى فى ذلك أن يكون هذا المعنى هو أسبق المعانى أو أحدثها فى الظهور، فالمعنى الأكثر شهرة يتصدر معانى الكلمة على ألسنة جمهور المتكلمين، ومن ثم يكون هو المتبادر إلى الذهن عند ذكر الكلمة بغض النظر عن قدمه أو حداثته، وهو بالتالى لا يثير غرابة أو دهشة فى ذهن القارئ أو السامع كما هو الشأن فى المجاز.

ثم إن مسلك الزمخشرى ليس بغريب فى اللغة ويمكن أن نستأنس له بمايلي :

أولاً: أنه مسلك كثير من اللغات الأجنبية، ولاسيما الأوربية منها ، حيث يجعلون المعنى المشهور للكلمة هو المعنى الحقيقى والأصلى، فى حين يجعلون المعانى الفرعية أو الثانوية الاستعمال فى عداد المعانى المجازية، ومن هنا تتغير معاجمهم كل فترة تغيرا شبه كامل، وهذا راجع بالطبع إلى سرعة تطور اللغة وتغيرها بحيث يمكن للانسان أن يدرك صورا متعددة لهذا التغير عبر جيل واحد، وقد أشار إلى ذلك (ماريوباى) بقوله «هناك دلائل كثيرة على أن أكثر الناس تعليما وثقافة كانوا على وعى تام بالتغيرات اللغوية التى حدثت أو التى تحدث للغتهم» ثم استشهد بمثالين فقال «يكفى أن تقتبس المثالين الآتيين:

١- تصريح القديس Jerome بأن اللغة اللاتينية نفسها تتغير يوميا سواء من مكان إلى مكان أو من وقت إلى آخر.

٢- إشارة القديس Augustine إلى أنه أفضل أن ينالنا توبيخ النحاة من أن يعجز عن فهمنا عامة الناس»[١].

ويقول (ماريوباى) في موضع آخر «أن لصورة التى يجب أن تكون ماثلة أمامه (أى أمام الباحث فى اللغة) هى أن اللغة سريعة التطور، وربما لم تكن هذه الصورة فى أى يوم مضى أصدق منها الآن. وبينما يجب على اللغوى أن يصف موضوعيا صورة لغات العالم كما تظهر الآن، وربما يعطى تنبؤات متحفظة عن المستقبل، يجب أن يكون مستعدا للتغيرات المفاجئة وربما المروعة، وقد شاهدنا فعلا تغيرات متعددة خلال القرن الحالى»[٢].

وربما يؤكد ما سبق ما ذكره الدكتور مازن المبارك فى معرض حديثه عن التطور اللغوى فى اللغات بعامه حيث يقول «وليس هذا موضع الموازنه بين خصائص العربية وخصائص تلك اللغات (الأوربية) لكن حسبنا الآن أن نقول أن أبناء العربية اليوم يفهمون دون عناء كبير ما كان قاله طرفه وعنتره وزهير من عشرات القرون، على حين لا يفهم ابناء الانجليزية ولا المثقفون فيهم ماقاله تشوسر منذ خمسة قرون»[٣].

---

(١) أسس علم اللغة ٢٢٧.

(٢) أسس علم اللغة ٧٤.

(٣) تشوسر أديب انجليزى ت ١٤٠٠م ينظر نحو وعى لغوى د/المبارك ١٢٤ ط. مكتبة الفارابى ١٩٧٠.

وقد تساءل أحد العلماء «هل يتغير المعنى؟ ثم أجاب قائلا إن نفس الكلمات بسبب تطور اللغة خلال الزمن تكتسب معنى آخر وتشرح فكرة أخرى، وعلى هذا فإن ما يعنى بتغيرات المعنى هو تغير الكلمات لمعانيها»[١]. ويمكن بسهولة أن نلاحظ أن أغلب التطور الذي لحق العربية فى صدر الاسلام كان عن طريق اكتساب كثير من الألفاظ القديمة لمعان جديدة كما هو الشأن فى الكلمات التى تعرضنا لها فى هذا البحث.

والعربية كسائر اللغات فى هذا الشأن- وإن كان لها ظرفها الخاص الذى يميزها من بعض الجوانب- إلا أن سنة التغير التدريجى تجرى عليها كما تجرى على غيرها من لغات العالم وإن بدا بدرجات مختلفة، ولهذا يقرر بعض العلماء أنه «من العصر الجاهلى حتى الوقت الحاضر والتغير فى معانى الكلمات واقع بدرجة كبيرة، حتى أنه الآن يتطلب معرفة لغوية خاصة ليكون الباحث قادراً على أن يقرأ ويفهم فهما مناسبا شعراء مثل امرئ القيس والنابغة والشنفرى.

ولن تكون المفردات التى يستخدمها هؤلاء غريبة تماما على القارئ الحديث، بل إن معظمها سيبدو مألوفا إلى درجة تشريبا بأن نفسى حاجز الزمن ونستسلم لفكرة خادعة مؤداها أننا قادرون على تحديد المعانى والمفاهيم الحاضرة بالمعانى والمفاهيم القديمة، ولكن سرعان ما تحين الفرصة التى نتحرر فيها من هذا الفهم وندرك أنه مع

---

(١) علم الدلالة د/أحمد مختارعمر ٢٣٥.

احتفاظ الكلمات ببنيتها- فإن معانيها لا تثبت على حال، وهذا التحول أو التغير أو التطور ربما نسى ولم يلحظ»[١].

هذا ويؤكد العلماء على أن «اللغة ليست هامدة ولا ساكنة بحال من الأحوال على الرغم من أن تغيرها قد يبدو بطيئا فى بعض الأحيان، فالأصوات والتراكيب والعناصر النحوية وصيغ الكلمات ومعانيها معرضه كلها للتغير والتطور، ولكن سرعة الحركة والتغير فقط هى التى تختلف من فترة زمنية إلى أخري، ومن قطاع إلى آخر من قطاعات اللغة، فلو قمنا بمقارنة كاملة بين فترتين متباعدتين لتكشف لنا الأمر عن اختلافات عميقة وكثيرة من شأنها أن تعوق فهم المرحلة السابقة وادراكها ادراكا تاما»[٢].

ثانياً: أن العلماء يؤكدون أن كثرة استخدام الكلمة فى معنى مجازى يؤدى غالبا إلى انقراض المعنى الحقيقى وحلول المعنى المجازى محله، وكتب اللغة والأدب مليئة بأمثلة من ذلك ومنها كلمة (المجد) فأصلها امتلاء بطن الدابة بالعلف فصار يدل على السمو والرفعه، والعقيقة أصلها الشعر ينزل به المولود فصارت تدل على ما يذبح عند حلق هذا الشعر، والغفران أصله الستر المادى المحس فصار يطلق على

---

(١) العربية الفصحى الحديثة ستتكيفتش ترجمة د/محمد عبد العزيز ٥٥ ط. القاهرة ١٩٨٥م. وقد أشار كثير من العلماء إلى بعض صور تغير المعنى مثل ابن فارس وابن الانبارى وابن دريد وغيرهم.

(٢) دور الكلمة فى اللغة أولمان ١٧٠ ترجمة د/ كمال بشر ط. مكتبة الشباب.

الصفح والعفو وهو معني مجرد، وكانوا إذا باعو شيئا صفق البائع على يد المشترى فسمى البيع صفقة، وبقى اللفظ وذهبت عادة الصفق»[١].

وقد أشار ابن جنى إلى هذه الحقيقة بقوله «إن المجاز إذا كثر لحق بالحقيقة»[٢] ويؤكد ذلك بعض العلماء فيقول «ولابد لنا من القول بأن استعمال اللفظ بالمعنى الجديد يكون فى بادئ الأمر عن طريق المجاز لكنه بعد كثرة الاستعمال وشيوعه بين الناس تذهب عنه هذه الصفة وتصبح دلالته على مدلولة الجديد دلالة حقيقية لا مجازية[٣].

وأحسب أن ذلك هو ما دعا الزمخشرى إلى أن يعد بعض المعانى الجديده أصلا ومن ثم يضعها فى باب الحقيقة.

ومن الواضح أن المجاز وحده لا يكفى فى تحول المجاز إلى حقيقة دون أن يقترن بكثرة الاستعمال على ألسنة المتكلمين[٤].

ورب قائل يقول بأن الزمخشرى لم يسلك مسلكا واحدا تجاه هذه الألفاظ، فقد عد بعض معانيها الجديدة من باب الحقيقة، فى حين لم يسلك نفس المسلك مع كلمات أخرى مع أن معظمها من الكلمات

---

(١) علم اللغة د/وافى ٢٣ وفقه اللغة للاستاذ المبارك ٢١٥ وينظر الجمهرة ٤٣٢/٣، ٦٩/٢.

(٢) الخصائص ٤٤٧/٢.

(٣) فقه الله الاستاذ المبارك ٢٢١.

(٤) علم اللغة د/عبد الغفار هلال ٢١٤، علم اللغة د/وافى ٢٣.

الشرعية التى جدت مع ظهور الاسلام واكتسبت معانيها الجديده بنزول تشريعاته.

والإجابة على ذلك ليست عسيرة لأن الزمخشرى عبر عن المجاز والحقيقة فى عصره هو لا فى عصرنا نحن ومن المؤكد أن عصره مختلف عن عصرنا ومن ثم لايمكن القطع بمعرفة المعنى المشهور للكلمة فى عصر من العصور إلا من خلال رؤية علماء هذا العصر، ولذلك فقد اشترط العلماء لصحة الحكم على كل من الحقيقة والمجاز أن يقتصر على بيئة معينة وجيل خاص، فالمجاز القديم مصيره إلى الحقيقة، وعيب القدماء أنهم نظروا إلى ما يسمى بالوضع الأول. وهو بحث فى نشأة اللغة التى هجر البحث فيها، كما أنهم جعلوا كل عصور اللغة عصرا واحدا »[١].

ولعل ما سبق يفسر لنا تقسيم العلماء للمجاز إلى الأقسام التالية :

أ) المجاز الحى وهو الذي يظل فى عتبة الوعى ويثير الغرابة والدهشة عند سامعه.

ب) المجاز الميت وهو ذلك النوع الذى يفقد مجازيته ويكتسب الحقيقة والألفه من كثرة تردده.

جـ) المجاز النائم ويحتل مكانا وسطا بين النوعين السابقين[٢].

فهذا التمييز بين أنواع المجاز يشير إلى أهمية الاستعمال فى شيوع بعض المعانى المجازية على حساب المعانى الحقيقية واحتلالها

---

(١) دلالة الألفاظ د/أنيس ١٢٧ ، ١٢٨، ١٣١.

(٢) علم الدلالة د/أحمد مختار ٢٤٢.

لموقع الصدارة من بعض الألفاظ ومن ثم توجد أنواع المجاز السابقة، وكما يقول بعض الباحثين فإن التوسع بالمجاز يخلق صورا جديدة بوسائل فعلية قديمة(١).

---

(١) العربية الفصحى الحديثة ١٥٨ وينظر فى تعريف المجاز مفتاح العلوم للسكاكى ٥٩٥ ط. بيروت.

نتائج البحث

تعرض هذا البحث لقضية الحقيقة والمجاز من خلال بعض الأمثلة التى وردت فى معجم أساس البلاغة.

وأحسب أنه بعد استعراض ماورد فى هذه الدراسة يمكن للمرء أن يؤكد على مايلى :

١- أن هذا المعجم معجم متميز، ليس فى ترتيبه الميسر وحسب، ولكن أيضا فى معالجته للألفاظ وفى وفرة مادته، وهو بهذا صالح لكل عصر ميسر لكل طالب.

٢- أن هذا المعجم قد لفت الأنظار إلى ما للسياق والتركيب من أثر فى تحديد معنى الكلمة، وذلك من خلال التزامه بإيراد ألفاظه من خلال التراكيب البليغة والتعبيرات الراقية، ولاسيما المأثوره منها، وقد فطن العلماء فى عصرنا إلى أهمية السياق وخطره فى إبراز المعنى أو المعانى المختلفة للكلمة.

٣- ميز هذا المعجم-ولأول مرة- بين الحقيقة والمجاز فى معظم مواده، وهو أمر جديد ربما لم يخطر بذهن أحد من أصحاب المعاجم السابقة عليه، وبهذا الأمر يكون الزمخشرى قد ربط- فى سهولة ويسر- بين علم اللغة وبين علوم البلاغة والأدب التى تهتم بدلالة التراكيب وتميز بين مختلف الأساليب.

٤- ومن هنا اهتم الزمخشرى بأنه قد خلط بين الحقيقة والمجاز، واضطرب فى تحديد كل منهما ، والواقع أنه لم يكن ثمة اضطراب أو خلط، وذلك لسبب بسيط هو أن الزمخشرى عبر عن كل من الحقيقة والمجاز فى عصره هو، لا فى عصرنا نحن، ولا ريب أن عصره مختلف- عن عصرنا فى كثير من جوانب

الحياة ومظاهرها ، ثم إن الخلاف بين العلماء فى أمر الحقيقة والمجاز مشهور، فبعضهم يرى أن اللغة كلها مجاز وبعضهم يرى عكس ذلك، وبعضهم يرى أن اللغة أكثرها مجاز وهكذا [١] وهو كلام إن دل فإنما يدل على اختلاف وجهات النظر فى الحكم على كل من الحقيقة والمجاز، ومن ثم فلا نجد مجالا لهذا الاتهام.

وحتى تتضح الفكرة أمام القارئ الكريم عرضت لمجموعة من الألفاظ التى يمكن أن تكون محل خلاف بين العلماء.

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أوأخطأنا

وآخر دعوانا أن الحمد الله رب العالمين.

---

(١) ينظر المزهر للسيوطى ٢/٣٥٥، ٣٦٦ ط. الحلبى دون تاريخ.

أهم المراجع

١- أدب الكاتب : لأبى محمد مسلم بن قتيبة-ط.مؤسسة الرسالة بيروت- ١٩٨٦.

٢- أساس البلاغة : لأبى القاسم محمود بن عمر الزمخشرى-ط. دار المعرفة- بيروت ١٩٨٢م.

٣- أسس علم اللغة : ماريوباى- ط. عالم الكتب.

٤- أشعار الشعراء الستة: للأعلم الشنتمرى-ط. دار الآفاق- بيروت ١٩٨٣م.

٥- أصول التشريع الاسلامى: الشيخ على حسب الله-ط. دار المعارف - القاهرة ١٩٧٦م.

٦- الأغانى: لأبى الفرج الأصفهانى-ط. دار الكتب.

٧- بصائر ذوى التمييز: لمحمد بن يعقوب الفيروزابادى-ط. دار الكتب العلمية- بيروت.

٨- بغية الوعاة : للسيوطى- ط. بيروت.

٩- تأويل مشكل القرآن: لابن قتيبة-ط. دار التراث ١٩٧٣م.

١٠- تفسير القرطبى: محمد بن أحمد القرطبى-ط. دار الكتب.

١١- تفسير الكشاف: للزمخشرى-ط. الدار العالمية للطباعة.

١٢- تفسير غريب القرآن: لابن قتيبة-ط. الحلبى ١٩٥٨م.

١٣- جمهرة أشعار العرب: لأبى زيد القرشى-ط. دار نهضة مصر.

١٤- جمهرة اللغة: لأبى بكر بن دريد-ط. دار صادر بيروت.

١٥- الخصائص : لأبى الفتح بن جنى-ط. بيروت ١٩٨٣م.

١٦- دلالة الألفاظ: دكتور إبراهيم أنيس-ط. الانجلو المصرية ١٩٧٢م.

١٧- دلالة السياق: دكتور عبد الفتاح البركاوى-ط. دار المنار القاهرة ١٩٩١م.
١٨- دور الكلمة فى اللغة : ستيفن أولمان -ط. مكتبة الشباب ١٩٨٧م.
١٩- ديوان الأعشى الكبير (بيمون بن قيس) تحقيق د/محمد حسين. ط. بيروت ١٩٨٣م.
٢٠- ديوان حسان بن ثابت تصحيح عبد الرحمن البرقوقى-ط. دار الكتاب العربى - بيروت ١٩٨١م.
٢١- ديوان الراعى النميرى تحقيق (ڤايبرت)-ط. بيروت ١٩٨٠م.
٢٢- ديوان سحيم (عبد بنى الحسحاس) - نشر الدار القومية للطباعة ١٩٥٠م.
٢٣- ديوان الشحاح ين ضرار تحقيق د/صلاح الدين الهادى- ط. دار المعارف القاهرة بدون تاريخ.
٢٤- ديوان لبيد: ط. دار صعب بيروت.
٢٥- ديوان النابغة الذبيانى: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم-ط. بيروت ١٩٨٤م.
٢٦- الزاهر فى معانى كلمات الناس: تحقيق حاتم الضامن-ط بغداد ١٩٨٧م.
٢٧- الزينة فى الكلمات الاسلامية العربية لأبى حاتم أحمد بن حمدان الرازى-ط. القاهرة ١٩٥٧م.
٢٨- شعراء إسلاميون : د/نورى حمودى القيسى-ط. عالم الكتب بيروت ١٩٨٤م.
٢٩- الصاحبى فى فقه اللغة: أحمد بن زكريا بن فارس: ط. دار الفكر ١٩٧٩م.

٣٠- صحيح البخارى بحاشية السندى: ط. الحلبى بدون تاريخ.
٣١- العربيه الفصحى الحديثة : سنتكيفتش ترجمة د/محمد عبد العزيز-ط. دار الفكر القاهرة ١٩٨٥م.
٣٢- علم الدلالة : دكتور أحمد مختار عمر-ط. دار العروبة- الكويت ١٩٨٢م.
٣٣- علم اللغة: دكتور عبد الغفار هلال-ط. الجبلاوى -القاهرة ١٩٨٦م.
٣٤- علم اللغة : دكتور على عبد الواحد وافى-ط. دار نهضة مصر.
٣٥- العين: للخليل بن أحمد الفراهيدى-ط. بغداد ١٩٦٧م.
٣٦- غريب الحديث:لأبى عبيد القاسم بن سلام الهروى: ط. دار الكتاب العربى بيروت ١٩٧٦م.
٣٧- الفائق فى غريب الحديث للزمخشرى: ط. دار المعرفة- بيروت.
٣٨- الفروق فى اللغة : لأبى هلال العسكرى-ط. دار الآفاق بيروت ١٩٨٣م.
٣٩- فقه اللغة وخصائص العربية: الأستاذ محمد المبارك-ط. دار الفكر بيروت.
٤٠- الكامل : لمحمد بن يزيد المبرد-ط. مؤسسة الرساله بيروت ١٩٨٦م.
٤١- لسان العرب : لابن منظور الافريقي-ط. دار المعارف القاهرة.
٤٢- اللغة: فندريس ترجمة الدراخلى والقصاص-ط. لجنة البيان العربى ١٩٥٠م.
٤٣- المخصص : لابن سيده (على بن اسماعيل)-ط. دار الأفاق بيروت.

٤٤- المزهر فى علوم اللغة: للسيوطى- ط. الحلبى بدون تاريخ.
٤٥- المعجم العربى: دكتور حسين نصار-ط. مكتبة مصر القاهرة.
٤٦- المعجم العربى بين النظرية والتطبيق دكتور عبد الله ربيع-ط. القاهرة ١٤٠٥هـ.
٤٧- النهاية فى غريب الحديث والأثر: لمحمد بن الجزرى-ط. المكتبة الاسلامية.
٤٨- هدية العارفين: لاسماعيل البغدادى-ط. دار الفكر ١٩٨٢م.
٤٩- وفيات الأعيان: لأبى العباس شمس الدين بن خلكان-ط. دار الثقافة بيروت.

****

******